

عصر الظاهر بيبرس، إلى خضوع المنطقة كلها للعثمانيين، ثم حملة النبي، ثم إنشاء دولة إسرائيل الحديثة، لو أنهم كانوا يعرفون هذا جيداً لكانت نظرهم إلى المشكلة قد اختلفت كثيراً وكانوا أدركوا من بالضبط يحاربون عندما يحاربون إسرائيل وما جدوى مثل هذه الحرب ولعرفوا لماذا حدث بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، لماذا حدث أن كان تقسيم فلسطين وإنشاء الدولة اليهودية هو الشيء الوحيد الذي اتفقت عليه القوتان العظميان برغم ما بينهما من عداوة مريرة ورعب قاتل متبادل، وظلتا تتفقان عليه إلى يومنا هذا حتى بعد أن تحول الاتحاد السوفيتي إلى روسيا الاتحادية بكل ما لديها من مشكلات ومناعب.

إن أى بلد فى الدنيا، هو ملك لشبابه لا لشيوخه، فنحن راحلون، نحن الشيوخ، وعلينا أن نترك لشبابنا بيئة تصلح للحياة. كل ما يعانيه شبابنا اليوم من ضنك ويأس وما يرزحون تحته من أتعال الحياة، كل هذا ليس وليد السنة الماضية ولا التى قبلها، أنه يرجع إلى عشرات كثيرة مضت من السنين. وهذه هى أهمية النظرة التاريخية، أن نعرف من أين جاء هذا. إن فى هذا العالم أماكن تعاني من آثار حروب دارت فيها منذ مئات من السنين ، محاولة تحسين الأحوال تبدأ بدراسة تاريخها وجذور المشكلات المتمثلة فيها، لأنه على مستوى الـ "ماكرو"، أى المستوى العمومى، الواسع النطاق، يستغرق الأمر وقتاً طويلاً، ومن هنا فلا غنى عن النظرة التاريخية .

أمس واليوم :

شبابنا يرون فى مصر الآن دولة ومجتمعاً يختلفان إلى حد هائل عما كانا عليه عندما كنا — نحن العجائز — ما نزال شباباً .
تتصف مصر الآن بهذه العلامات :

— على الصعيد السياسى العالمى والدبلوماسى، هى دولة داعية إلى السلام وراعية له، علاقاتها الدولية طبيعية وطيبة مع كل دول العالم تقريباً، قد تكون إيران — لشذوذها — هى الاستثناء الوحيد، وحتى هنا ، تحاول مصر أن تصلح من هذا الوضع . علاقاتها طيبة حتى مع الأضداد ، مثل تركيا واليونان، أو الهند والباكستان . حلت مشكلة طابا بالدبلوماسية وتوسطت بين تركيا وسوريا مما أدى إلى إنهاء وضع خطير بينهما . تساعد الفلسطينيين على التوصل إلى حل لمشكلتهم عن طريق السلام والتفاوض مع أن موقف القيادة الفلسطينية من مصر أيام كامب ديفيد — التى كانت بداية طريق السلام والتوصل ولو إلى شىء مع دولة كانت رئيستها جولدا مائير تقول أنه لا يوجد شىء اسمه الشعب الفلسطينى — موقف هذه القيادة من مصر — وموقفها أيضاً من الكويت التى فتحت أبوابها وخزائنها لشعب فلسطين بشكل لا مثيل له، كان يصلح تبريراً لأى موقف سلبى تأخذه مصر من تلك القيادة .

— على الصعيد الاقتصادى، مصر قد اتخذت موقعها فى العالم كعضو فى سوقه الكبيرة ، آليات السوق بدأت تعمل ، المشروعات والبنية التحتية تطورت بمعدل قد لا يكون له مثيل فى الدنيا، وحكومتها تشجع الاستثمار وجلب الأموال من الخارج، للمواطن المصرى ورجل الأعمال الوطنى أن يجلب ما يشاء وأن يحول ما يشاء لصالح الاقتصاد ولخلق فرص الأعمال . مصر عضو فى منظمة التجارة العالمية وموقعة على اتفاقية الجات .

— على صعيد السياسة المحلية، مصر لديها أحزاب معارضة وصحافة معارضة، صحيح أن الديمقراطية الكاملة لم تتخذ شكلها النهائى بعد، فقط — كما ذكرنا — نحن هنا فى مستوى الماكرو والقفر ليس هو الطريق إلى الانتقال الطبيعى .

— أقامت الحكومة على أنقاض البلد بنية تحتية كاملة من وسائل النقل والمواصلات لن ندخل فى تفاصيلها وسنكتفى بالقول

بأنها تشبه معجزة إعادة بناء ألمانيا على مستوانا .
نحن لسنا الآن بسبيل تقييم أى وضع أو إصدار الأحكام بأن هذا
خير وهذا شر أو أن هذا أفضل وذاك أسوأ، إننا فقط نريد أن
نتساءل :

— إذا كان من الحكمة أن تبني الدولة منظومتها الاقتصادية
على آليات السوق وتترك قوانين العرض والطلب تعمل على
مستواها وعلى النطاق العالمى، وأن تكون هي واحدة من مكونات
السوق العالمية فى زمن العولمة، إذا كان هذا من الحكمة، فكيف
يكون استيلاؤها وسيطرتها على وسائل الإنتاج والتوزيع
والخدمات، كيف يكون هذا أيضاً عملاً حكيماً ومفيداً ومثمراً، علماً
بأن الفارق الزمنى بين التحول من الخصوصية إلى العمومية، ثم
من هذه إلى تلك، ليس إلا الستينيات ونصف السبعينيات ؟ خمس
عشرة سنة !!

— إذا كان وجود المعارضة السياسية أمراً لا بد منه لترشيد آلية
الحكم وضمان الحد من الانحراف وإيجاد وسيلة إلى الإدارة
التشاركية" وإلى شحذ الأفكار بالفكر المعارض ، إذا كان الأمر
كذلك ، وإذا كان يتطلب درجة أو أخرى من الحرية فى تكوين
الأحزاب والفرق السياسية وفى إصدار الصحف التى لا تخضع
لرقابة الدولة إلا من حيث حماية قيم المجتمع ، إذا كان الأمر
كذلك، فكيف نفسر تمجيد الحقبة التى جرى فيها إلغاء الأحزاب
ومصادرة أموالها وممتلكاتها وتحويل الصحف إلى نشرات
حكومية؟ كيف يكون الشيء وضده كلاهما حصافة صباح اليوم
وحكمة فى مساءه؟ علماً بأن الدنيا مليئة بالتجارب فى هذا وذاك
ولا داعى لأن نتحول إلى معمل لإجراء الاختبارات فى أمور
وضحت عواقبها وتخلى دعائها عنها بشكل كان واضحاً تماماً حتى
من قبل أن نشرع نحن فى ذلك ؟

— إذا كان التعايش مع دول العالم كله، والعالم العربى، سياسة

حكيمه، مع التناقض الفظيع فى الأنظمة على هذين المستويين، وإذا كان إقرار السلام مع إسرائيل هو السبيل الوحيد لاسترداد قدر ولو ضئيل من الحرية والكرامة لشعب فلسطين، كما هو الآن واضح تماماً من الموقف الأمريكى والأوروبى، الذى أوقف الحديث عن الوطن البديل، والذى جعل اسحق رابين وهو رئيس لوزراء إسرائيل، يعلن أنه خجلان من حادث إطلاق الرصاص على المصلين فى الحرم الإبراهيمى، إذا كان كله موقفاً حكيماً ومثمراً، فكيف يكون كذلك، وأيضاً يكون خوض حرب كحرب ١٩٦٧ هو أيضاً موقف حكيم ويتصف بالشهامة والبطولة ؟

— إذا كانت علاقة مصر مع المملكة العربية السعودية ما هى عليه الآن، وما كانت عليه أثناء حرب أكتوبر ١٩٧٣، فى عصر المغفور له الملك فيصل، فكيف تكون هذه سياسة سديدة وحكيمه، ويكون الدخول فى صراع مسلح مع هذا البلد العربى هو أيضاً سياسة سديدة وحكيمه ؟ مما أوصل الأمور إلى دخول الحرب ضد إسرائيل سنة ١٩٦٧ والقوات المصرية مشتبكة مع قوات سعودية فى اليمن . أو على الأقل متخذة منها موقفاً شديد العداء، من حيث أن المملكة السعودية ترى فى مصر حليفاً لقرى الشيوعية العالمية التى تعدها هى شراً مستطيراً لقائمة طويلة من الأسباب .

— وكيف نتحدث عن وحدة الصف العربى وغير ذلك من التعابير النمطية التى سادت الهواء إذ ذاك، ونحن منحازون لإحدى الكتلتين العالميتين، لا فى سياستنا الداخلية فحسب، بل وتنظيماتنا الداخلية أيضاً، وذلك بمقتضى ميثاق العمل الوطنى الذى ينص على ما هو مسموح به للنشاط الخاص وهو قدر لا يذكر وينحصر فى التجارة الداخلية فقط تقريباً وبعض الصناعات الصغيرة، ثم يضيف أنه يجوز للسلطة أن "تصادر النشاط" إذا انحرف صاحبه، دون أن تحدد أوصافاً لهذا الانحراف، فهى تتركه لتقديرها، وكان شبابنا يتلقون المنح الدراسية من دول أوربا

الغربية فترد عليهم السلطات بأنها تفضل أن تتلقى المال الذى سينفق عليهم لتدريبهم هنا ، ويقال تفسيراً لذلك أن شبابنا عندما يزورون هذه البلدان، فإنهم يتعرضون لأموار وأحوال تخالف عقائدنا ؟ لأن عقائدنا هي المادية الجدلية والتاريخية ، هذه هي عقائد المجتمع المصرى . إذا كان الأمر كذلك ، فكيف نقدم على معركة مصيرية مع العدو المشترك ونحن أكثر عداء لأصدقائنا وأبناء جلدتنا ؟ ألا يكون من الحكمة أن ننتظر حتى نحقق الوحدة أولاً، بنشر العقائد الاشتراكية فى أنحاء العالم العربى والإسلامى؟ هذا إن كانت هذه الخيالات ممكنة التحقيق !

خلاصة هذا كله هي أننا نتساءل - دون أن ننحاز إلى أى من النقيضين - نتساءل عن هذه المتناقضات، كيف يكون الشئ، ونقيضه صحيحين ؟ وإذا كان ما مضى وتخلصنا منه هو الخطأ، فلماذا نصر على امتداحه وعلى تعليم أبنائنا فى المدارس أنه كان عصراً مجيداً ؟ صحيح أنه مضى وفات . ولكن ماضى الأمم أكثر حياة وأكثر حقيقة من حاضرها، لأن هذا الحاضر هو مجموع أحداث الماضى ومحصلتها، وإذا كنا صادقين فى بناء الديموقراطية من أجل مستقبل أفضل ، فكيف سيمارسها الناخبون وقد تعلموا أن الخير والشر كلاهما خير مادام يأتى من السلطة ؟؟

مرة واحد صعيدى ...

"كل الفارق إذن أن الصعيد شق غائر ضيق ، بينما الدلتا مروحة مبسوطة مسطحة ، وهي أكثر طمئية فى قلبها من الصعيد ، ولكنها أكثر منه رملية فى الأطراف . وفيما عدا هذا فالدلتا تتحلل فى النهاية إلى مجموعة مخففة مصغرة متراسة من "الصعيدات" فى نمط أشبه ما يكون بورقة شجر مقلوبة ، عروقها هي الضفاف المرتفعة ، وأرضيتها هي المجارى المائية، والتباين المحلى المحسوس لا يبين حقاً

إلا في أقصى الأطراف الهامشية ، شمالاً في الدلتا وجنوباً في الصعيد
الأقصى، فالأولى نطاق مستقعى بحرى ، والثاني شريط جنادل
صخرى ، أما الفيوم ، فهي مصر الصغرى ... "

جمال حمدان : "شخصية مصر"

المصريون مولعون بالنكت و النوادر ... ويحسنون ابتداعها
وتبادلها ويفوقون في ذلك معظم شعوب العالم، وصدق من قال أن
تبادل النكت هو الصحافة الحقيقية .

وأهل بحرى في مصر يتخذون من الصعايدة - أهل الجنوب
- أبطالاً لما يتدعون من النوادر ، على أساس أنهم ليسوا على
نفس الدرجة من "المودرنيزم" التى يتصف بها أهل مصر السفلى،
الذين يطلون على البحر ويواجهون أوروبا ويتلقون البواخر فى
موانئ الإسكندرية وقناة السويس ... إلخ ، وإلى عهد قريب كان
بحرى ينفرد بجامعة القاهرة ، ثم بجامعة الإسكندرية ثم عين
شمس من قبل أن يحظى هذا الشريط الضيق الطويل بحظه من
الحياة الأكاديمية ، و يا للهول ! ولا تنفرد مصر بهذه الظاهرة ،
فشمال ألمانيا هو "بروسيا" وجنوبها هو "بافاريا" والألماني
البروسى هو أيضاً يعد نفسه أعلى مستوى من صعايدة ألمانيا فى
الجنوب ، والشمال هو موطن ميناء همبرج العظيم ، ومدينة
دوسلدورف التى هى باريس ألمانيا، ثم المراكز الصناعية الهائلة
التى تحيط بها. أما فى أمريكا فولايات الجنوب لا تتصف بالتخلف
فحسب بل بالهوان الذى نالته فى الحرب الأهلية ، والعار الذى
لحقها من التمسك بنظام عبودية البشر واسترقاقهم من أجل زراعة
القطن ، وحتى يومنا هذا ما تزال ولايات ألاباما وميسيسىبى
وغيرها من ولايات "الجنوب العميق" كما يسمونه ، ما تزال تحظى
بقدر هائل من الكتابات الدامية والساخرة ، من روائع وليم فوكنر
إلى أفلام وحلقات الممثل الأسود سيدنى بواتييه المعنونة "فى

حرارة الليل"، والتي بدأت بفيلم كان هذا عنوانه ، ولن أنسى منظر الشرطى الأبيض الذى يحتقر بوايته لكونه أسود برغم كفاعته، وكانت قد وقعت جريمة قتل وقبضوا عليه لمجرد أنه أسود ثم اكتشفوا أنه محقق شرطى على مستوى عال جاء من الشمال ليزور أسرته، ونرى الشرطى الأبيض بعد المشادة يمسك بالتليفون ويقول للعاملة: حاولى أن تأتبنى بخط المكالمات البعيدة من فضلك. والأمر هناك ليس بهذا السوء طبعاً، ولكن أهل الجنوب هم صعايدة أمريكا.

إلا أن صعيد مصر أعطى لمصر ما لم تكن تصبح هى مصر بغيره . لا مجرد حضارتها القديمة وتاريخها العظيم، بل هناك الكثير مما هو حديث أيضاً ... ولكن المصريين — بمن فيهم الصعايدة أنفسهم — يلذ لهم أن يتندروا بالصعيدى الذى زار باريس وطلب طبق "انكور"، والذى نصحه طبيبه بأن يأكل "رجيم" فهو يتناول وجبته الهائلة ثم يطلب "الرجيم" وهكذا ... وأثناء سنوات الأربعينيات طلعت صحيفة كبرى على الناس بحكاية مؤداها أن "واحد صعيدى" جاء إلى القاهرة واتبهر بمنظر الترام. لم يكن قد رأى شيئاً كهذا فى حياته فلم يكن يوجد التليفزيون ولم يكن متاحاً له وسيلة أخرى . ولما رأى المارة ما بدا عليه من ذهول عرض عليه واحد منهم أن يبيعه له، فأخرج كل ما كان قد جاء به معه من مال وأعطاه له . وبعد ذلك أصبح هذا التعبير "الصعيدى اللى اشترى الترامواي"، تعبيراً نمطياً يدل على منتهى القروية والسذاجة.

وكان هذا منشوراً على أنه خبر حقيقى ، لسنا نعرف الآن مدى صحة ذلك ولكن أحداث الخديعة تحصل لخلق الله من حيثما يأتون ولا تقتصر على الصعايدة طبعاً . وقد كانت تلك هى الحقبة التى أعطى فيها الصعيد لمصر نصيباً وافراً من الحكماء، وهناك مثلاً : (مرة واحدة) عباس العقاد وطه حسين، معاً! وهدى شعراوى وعلى

عبد الرزاق... إلخ، والكثير من أبناء مصر الأقباط الذين كانوا من أقطاب الكفاح الوطني، والعلوم والآداب والفكر والمال والتجارة . وأعطاهما أيضاً (مرة واحدة ، أيضاً) :

جمال عبد الناصر، ورفيق "كفاحه" و"زميل سلاحه"، عبد الحكيم عامر.

وقد اشترى عبد الناصر الترام فعلاً، ومرتين ...

مرة من العرب ، ومرة من الروس .

وفى كلتا الحالتين، كانت مصر هي الثمن الذى استخرجه من صرته.

وفى كلتا الحالتين ، كان لابد أن تمضى سنوات طويلة قبل أن يكتشف ما وقع له ومدى الخديعة من هنا ، والغفلة من هناك.

فى حالة العرب، لم يكن الانقلاب السورى سنة ١٩٦١، بعد

الوحدة بثلاث سنوات فقط ، وما صاحبه من جرعة الإهانة التى لم يسبق لها مثيل ، لم يكن هذا كافياً له ليفيق إلى الواقع والحقيقة .

يقال أن عبد الحكيم نفسه نال نصيباً وافراً من الضرب على قفاه ، مادياً ومعنوياً ، وصدرت إذ ذاك نكتة مصرية تقول أنه قد تم سك

عملة جديدة عليها صورته، ومكتوب عليها "ضرب فى دمشق" —

أما الضباط المصريون فذاقوا من الاعتقال والذل والهوان والإهانة ما لم يكونوا قد ذاقوه من قبل . لم يكن هذا كافياً ، بعد توضيحات

الإقليم الجنوبى وسكانه من "الفلاحين المساكين" كما وصفتهم إذاعة

دمشق إذ ذاك، من أجل "التجار الشوام"، وقف عبد الناصر يخطب

قائلاً: "أنا مسؤول عن هذه الجمهورية من القامشلى إلى أسوان" ،

لم يسمعه سوى المساكين، وركب الترام وسار به إلى المحطة

التالية، اليمن ليدفع المصريون ذهب بلادهم وأرواح أبنائهم، لا

ليشتروا الترام ، بل السوارس. وذهب عبد الناصر إلى جدة ليقابل

الملك فيصل، ورجع بخفى حنين كعادته ، ولعله بدأ يدرك حقيقة

أحلامه فى إمبراطورية عربية عندما قابل فيصل مرة أخرى فى

الخرطوم بعد ظهور حقيقة "القوة الضاربة" ، وتفضل الملك وأذن بسحب "العساكر المصرية" كما أسمتهم إسرائيل ، بالسلاح الشخصي. وقف فيصل بعد ذلك بست سنوات وقفة جادة وحاسمة إلى جانب مصر في هجومها الأول والأخير على إسرائيل حيث لم ينقذها إلا أكبر جسر جوى في التاريخ ، وهذا يعطينا الحق في أن نتساءل : هل كان فيصل سعيداً بما عملته إسرائيل في مصر وسوريا سنة ١٩٦٧ ؟ لا شك في شيء واحد ، وهو أن ما عملته إسرائيل قد قضى على كل أمل في نشر الشيوعية "من المحيط الهادر ... إلى الخليج ... الثائر ؟"

أما الترام الروسي فبدأ في منتصف الخمسينيات بصفقة تبتعتها صفقات من الأسلحة لا نعرف ماذا فعلت إسرائيل ببضائعها في حربي ١٩٥٦ ، ١٩٦٧. الذي شهدناه هو أنهم أثناء حرب الاستنزاف أنزلوا تسع دبابات روسية الصنع في الزعفرانة وأحدثوا خسائر فظيعة . سافر عبد الناصر إلى روسيا مرتين بعد الهزيمة، وكلف الرفيق على صبرى - بتاع السجاجيد - بأن يتابع شحنات السلاح : "خلاص، على صبرى حاي سافر مرة كل شهرين روسيا عشان السلاح" ، هكذا قال مرة في مؤتمر شعبي، هكذا تحل المشاكل كأن لم تكن، وفي آخر زيارة له لروسيا، أفهمه بريجنيف - أو هو نفسه تجلت له الحقيقة بعد غياب طويل، وعرف أن الاتحاد السوفيتي لن يخوض حرباً عالمية نووية من أجله . كان فعلاً يظن ذلك وألمح إليه في مؤتمر "إيدن الخرع" - ولما مضت الأيام وهو يحاول مرة بعد مرة أن يجد من يصغى إليه، أذيع أن الرئيس يعالج بما أسموه "المياه المشبعة بالإشعاعات"، أية مياه، وأية إشعاعات؟ في موضع اسمه "تسخالطوبو"، تسخالطوبو فعلاً ياله من اسم على مسمى .

ويبدو أن الرئيس الراحل السادات كان صادقاً فيما رواه من أنه قابل عبد الناصر عند الطائرة فور عودته من تلك الرحلة، وأن

عبد الناصر قال له إن الروس "هوبليس كيس"، هكذا قالها بالإنجليزية، يعنى حالة ميثوس منها . عندئذ فقط ، وبعد خمس عشرة سنة من واقعة شراء الترام الروسى، أدرك — عندئذ فقط — مدى ما وقع فيه من خديعة.

لن أستطيع أن أنتهى من هذه الفقرة دون أن أروى لكم تجربة شخصية كما حدثت دون أن أضيف أدنى تعليق من عندى .

فى مطلع سنة ١٩٦٤ كانت حرب اليمن تدور منذ ثلاث سنوات دون أن يبدو لها فجر يطلع ، وكنت أنا ما أزال ضابطاً فى سلاح المهندسين ولكننى منسحب للعمل فى مشروع السد العالى منذ ١٩٦٢ (ولدى وسام الجمهورية نظير ما قمت به هناك، يبدأ هكذا: من جمال عبد الناصر إلى فلان الفلانى)، وكانت "الوكسة" قد بقى عليها ثلاث سنوات ونصف ولكنها مكتوبة فى لوح القدر .

كان مرفق النقل العام لمدينة القاهرة يعانى مشاكل جسيمة، ولذلك قررت القيادة العامة للقوات المسلحة (برئاسة المشير عامر وبطانته)، أن تهبط عليها كالملاك المنفذ، "الضباط قادمون" كما يمكن أن يقال، كأنما نتؤكد القيادة مرة أخرى أن عمل الضابط هو أى شىء سوى الدفاع عن وطنه . ووجدت نفسى أشغل أحد مراكز الإدارة العليا فى هيئة النقل المذكورة .

كان واضحاً لى منذ البداية أن النقل سلعة كأي سلعة ، وأن لها تكلفة وبالتالي يجب أن يكون لها سعر يغطى هذه التكلفة ويحقق لها ربحية تجعلها تظل قادرة على العمل والبقاء والاستمرار . هذه معادلة الحياة . وكانت أسعار التذاكر تقررها القيادة السياسية إذ ذاك ولا تريد أن تزيد منها وإلا وقع ما وقع بعد ذلك فى وزارة زكريا محبى الدين، بقية القصة معروف وهى قصة القطاع العام كله .

ليس هذا موضوعنا ، موضوعنا هو أن لجنة الاتحاد الاشتراكي أقامت احتفالاً سنة ١٩٦٦ ودعتنى لحضوره، وكان كل اجتماع من هذا النوع يدعو واحداً من نجوم الثورة أو "رموزها" طبقاً للتعبير

الذى يشيع الآن، وكان النجم فى تلك الحالة هو المرحوم السيد
مجدى حسنين صاحب مديرية التحرير ... إلخ. ويعد الانتهاء من
محاضرات السائقين والمحصلين حول الاشتراكية والقومية ...
إلخ، تكلم الزائر الكبير ووجهت إليه أسئلة أجاب عليها وكان منها
سؤال بشأن السياسة الخارجية لا أذكره جيداً ولكنى أذكر الإجابة
عليه كما لو كنت سمعتها من دقيقة واحدة . أظن كان يتعلق
بموقفنا من أمريكا والعالم الغربى ، بعد أن أجاب على السؤال
أضاف هذا التعليق : "معلش الراجل بتاعنا أصله صعيدى ودماغه
ناشفة شوية"، ولم يكن هذا بلهجة النقد والعياذ بالله ، بل بلهجة
الحب والإعجاب المتناهى ...

دائرة معارف كاملة من النكت، منها هذه تناقلها شعبنا : حلف
اسمه مصر — يمين — كوبا.

جرب أن تنطقها مرة بعد مرة إلى أن تكشف الحقيقة وتعرف

إننا — كلنا — تفهم كل شئ ! وإلا فما كل هذه النكت ؟

اللبن والنفاية

" لم أر في التاريخ شعباً أحسن العالم استغلاله كالشعب المصرى ، فهو من أعماق التاريخ كان بقرة حلوباً للهكسوس الذين ظلوا مسانئى سنة ينهبون خيراته حتى أفاق من غيوبته فطردهم بقيادة أحسن العظيم ...

ثم أصبح للرومان مصدر غذاء وطعام ، وكانت أهراء القمح في مصر تمد روما بحاجتها منه ، واستمرت حقلاً للمستعمر الجديد مئات السنين ، ولا أطيل في بيان استغلال الدول لنا فذلك قد سجلته كتب التاريخ من عهد الأتراك إلى أيام الإنجليز . ولم يقتصر الأمر على استغلالنا مادياً ، بل تجاوزه إلى استغلال إرادتنا التي ضاعت تقريباً في كل هذه العهود ."

دكتور . إبراهيم عبده : "تاريخ بلا وثائق" (١٩٧٥)

شمس الشموسة

طلعت يا ما أحلا نورها

لسن الجاموسة

ياللا بنا غلا ونحلب

أغنية مصرية

لقد فتح عبد الناصر خزانة الشعب المصرى ، طوال سنوات حكمه، لينهل منها المرتزقة العرب من السياسيين والصحفيين وباعة الخطب وممرتزقى المؤامرات . حرم الشعب المصرى من ثروته ، ليوزعها على صحف بيروت وعملاً بما جيوب أصحاب الألسنة الطويلة في مقاهى بيروت وبغداد ودمشق .

إبراهيم سعده : "الروس قادمون"

فى منتصف سنة ١٩٥٣ أعلنت الجمهورية فى مصر وشغل اللواء محمد نجيب — رحمه الله — رئاستها وكان أول قرار له هو

ترقية عبد الحكيم عامر من رتبة رائد (كانت تسمى "صاغ" إذ ذاك، وهو الاصطلاح العثماني) إلى رتبة لواء مرة واحدة . ولم تكن القوى السياسية الراديكالية قد اتخذت أى مراكز للقوة حتى ذلك الوقت ، كان الإخوان يمثلون السياسة التى تستغل المشاعر الدينية لدى الجماهير، وما يزالون حتى الآن، والشبوعيون يستخدمون شعار الاشتراكية والعدالة ... إلخ، وهو ما يكفى لاجتذاب الشباب المتعلم ، ومعه نظرية الماركسية العلمية التى هي عدة الشغل عند من يطمحون إلى القيادة ، وكانت هناك أيضاً عناصر فاشيستيّة ما تزال تنتفس هنا وهناك ، كمصر الفتاة ، وبدا أول الأمر أن "القيادة" كما كانت تسمى - أو الثورة كما أسماها قادتها - قد تحالفت مع الإخوان فى مواجهة الأحزاب المنحلة ، و أبقت عليهم على أساس أنهم جمعية وليسوا حزباً ، وبالتالي لا ينطبق عليهم قرار حل الأحزاب ، وفعلاً كانت نبرة الإخوان عالية وظلت كذلك إلى أن جرى القمع الأول سنة ١٩٥٤ ثم الثانى وكان أشد عنفاً ، سنتى ١٩٦٥ ، ١٩٦٦ .

أما الشبوعيون فكان الحزب منظمة "تحت الأرض" طبعاً، وبدأوا يتصرفون بعصبية أثناء تلك السنة ١٩٥٣ عندما تبذدت أحلام "حدثو" فى وراثة الحركة المباركة وتغاقم الصدام الذى أدى إلى إغلاق مجلتى "الكاتب" و"الواجب"، وأخذوا يوزعون المنشورات التى تعرض بالنظام . وقد كنت إذ ذاك ضابطاً بسلاح المهندسين، منذ تكليف جميع خريجي كليتى هندسة القاهرة والإسكندرية سنة ١٩٤٨ - سنة حرب فلسطين - وكنت ألتقى، كما كان يتلقى غيرى ، مثل هذه المنشورات بالبريد، وكنت أسلمها للسلطات العسكرية المختصة، لا لمجرد الالتزام بالانضباط، بل أيضاً لأننى كنت إذ ذاك - وما أزال حتى الآن - أبغض كل نوع من الأيولوجيات السياسية والاجتماعية وأعدّها كلها أنواعاً من الدجل الذى يمارسه من يدعون إليها ولا يهدفون من ورائها إلا

إلى استئناس البشر وإخضاعهم لإرادتهم بأن يوهومهم بأن السعادة فى هذا أو ذاك ، سواء سعادة الدنيا — عند الشيوعيين — أو الآخرة وربما شيء من الدنيا ، عند الأصوليين ، وكنت ومازلت لا أرى قارقاً كبيراً من حيث الفكرة الأساسية بين هذين المذهبين ، وأعتقد جازماً أنه لا يمكن لأية أيديولوجية أن تكون صحيحة فى كل جوانبها، فالناس والحياة أكثر تعقيداً بكثير من أن يكون الأمر بهذه البساطة، وإذا كانت كلها صحيحة الآن فلن تكون كذلك لأن الدنيا ستكون قد تغيرت وهى باقية متجمدة كالحجر، وفى رأى أن من يؤمن بأية أيديولوجية سياسية اجتماعية يتخلى عن عقله ويسلمه إلى الزعيم ليتولى إدارة فكره وحياته ويتحول إلى درويش يستعبده أناس هم آخر من يصدق ما هو متدروش فيه ، وخاصة على جانب السياسة الدينية، والمسلم المؤمن قد يحتاج إلى من يفسر له القرآن والحديث ولكن طريقه إلى الله مفتوح وليس عليه إلا أن يؤمن به ويعبده هو لا واحداً من عباده.

كان أول منشور يسخر من مسألة عبد الحكيم عامر، وكان شعورى مماثلاً أنا أيضاً ، خصوصاً عندما أصدر اللواء محمد نجيب تصريحاً قال فيه: "لو فتحتم قلبى لوجدتم عبد الحكيم عامر"، أى نوع من الكلام هذا وهل يصح أنه يصدر من رئيس دولة هو أيضاً جنرال ؟ أنا كنت فى جانب بلدى طبعاً ولكنى أحسست فى الحال بأننى على الجانب الآخر ورأيت كما يرى النائم أن الإسرائيليين قد "ماتوا من الضحك" كما يقال ، وأيقنوا أنهم لن يجدوا أية مقاومة فى أية معركة مع مصر ، فكل من لديه أدنى فكرة عن العسكرية يعرف أن جيشاً مهمته هى "حماية مكاسب الشعب" كما قيل بعد ذلك ، سيكون قد تحول إذن إلى قوة بوليسية داخلية (بصرف النظر عما إذا كانت حقاً مكاسب أم مصائب) ، وأن الجيش الذى تنتشر فيه طبقات من ضباط ذوى رتب متوسطة وصغيرة، يسمون "الضباط الأحرار" (بل ويجلس على قمته واحد

من هؤلاء) يعرفون أن كبار مناصب الدولة في انتظارهم وأن عليهم أن يتأهلوا لها وليس للقتال ، وكبار الضباط يخافون هؤلاء الصغار ويتملقونهم ويستحلفونهم أن يسعوا في مصالحهم سواء بالمناصب أو المغنم ، وأنهم يتسابقون على هذه المغنم التي تتاح للجان جرد القصور ... إلخ، لن يختلف اثنان في أن تنظيمًا كهذا سيكون عديم القدرة على القتال وأنه لا يرقى حتى إلى مرتبة الميليشيا السياسية ... وهذا هو السبب الأوحده فيما جرى سنة ١٩٥٦ ثم ١٩٦٧ ، فهو لم يكن هزيمة ، لأنه لكي ننهزم لابد أن ندخل معركة ونخسرها، نحن لم ندخل المعركة أصلاً لأن الجيش كان قد تحول إلى جهاز للبوليس السياسى ، وكل ضابط يعرف هذا في أعماق نفسه وإن كان يستحيل أن يواجه حتى نفسه به ، وكان يحلو لى إذ ذاك أن أشبه موقف الجيش في مثل هذه الحالة بالفرقة المسرحية التي يأتي مديرها فجأة ويطلب من أفرادها أن يحولوا المشهد التمثيلى إلى مشهد فعلى يعنى مثلاً يطلب ممن يؤدي دور "عطيل" لا أن يمثل أنه يقتل ديدمونة ، بل أن يقتلها فعلاً، لاشك أن الممثل سيطلق ساقيه للريح رافضاً الموقف كله ، هذا بالضبط ما حدث في هاتين السنتين ، نحن لم نرسب في الامتحان ، نحن لم ندخل اللجنة أصلاً . "الله ؟ هوة بجد" هكذا قال كل فرد لنفسه ، وما عليك إلا أن تتأمل الأداء العسكرى سنة ١٩٧٣ . علماً بأنهم كانوا نفس الأشخاص بالكامل تقريباً . ومن أبرع ما أنتجه المصريون من النكت - وأكثرها دلالة على ذكائهم وعلى أنهم يعرفون الأمور على حقيقتها ، وإن كانوا يرفضون الإقرار بها لأنه "ما يصحش" ، فأبناء المذنب أو المجرم قد يعرفون حقيقته ولكن لا يجوز لهم أن يقرؤا بها : تقول النكتة إن ضابطين مصرى وإسرائيلى قتلا في الحرب وتقابلا في الآخرة وسأل المصرى : ما كل هذه الأوسمة ياكوهين ؟ فأجابته : هذا نظير أدائى في معركة للطرور ، أما هذا فعلى ما أبديته من شجاعة في

ممر متلا.. وأنت ، ما كل هذه الصفوف من الأوسمة ، فأجاب
المصرى : هذا وسام معركة عمر أفندى وهذه شركات للمقاولات
وهذه معركة المطاحن والمخابز ... إلخ.

ليست العسكرية مجرد انضباط ، ولكن الانضباط والإمرة
Command هو إطارها الذى لا تخرج عنه ، والقائد العسكرى
نوعية خاصة جداً من البشر - وستأتى لمزيد من هذا فيما بعد -
"سلالة" كما يمكننا أن نقول ، وقد درج الألمان على أن يستمدوا
جنرالاتهم من إقليم بروسيا بالذات ، فالضابط رجل على أتم
استعداد لأن يموت من أجل بلده ... وأن يطيع أوامر قائده بأن
يقتحم أشد الأخطار هولاً. وهو سليم البدن حاد الذهن على مستوى
عال فى إدراكه لفنون الإدارة والقيادة وللحياة عموماً ، متقف جداً
فى التاريخ والفكر والفنون .

كان هذا المنشور إذن يتحدث عن - وأنا أنقله حرفياً ولاحيلة
لى فى ذلك - "الصبى عبد الحكيم عامر الذى رقى من رتبة
الصاغ إلى رتبة اللواء بأمر جمهورى رقم واحد!" - سلمته
للأمن إذن وسرعان ما جاءنى منشور آخر هزنى هزاً عنيفاً واقتلع
قلبى من القفص ...

كان رسماً كاريكاتورياً هذه المرة ، جاموسة هائلة الحجم
سوداء اللون مكتوب عليها "مصر" ، فمها محسوّ بالبرسيم ، تتدلى
منه أعواد وهى تلوكها بكميات هائلة ، وتبتلعه بكفاءة عالية ،
فضروعها منتفخة باللبن ، وقد جنم أسفلها عدد من الصغار
يرضعون من حلماتها مباشرة كما يعتاد صبيان الفلاحين ، فقط
هؤلاء كانوا من أشكال متنوعة ، هذا أبيض مكتوب عليه سوريا
وهذا أسود مكتوب عليه السودان وهكذا ، ذيل الجاموسة مرفوع
فى الهواء ومؤخرتها تقذف كتلاً اسطوانية الشكل ، كما لو كانت
فوهة مدفع ، تطير هذه الكتل من روث البهيمة فى الهواء لتسقط
على رءوس جمع من الناس مكتوب عليهم "الشعب المصرى".

أفزعنتى هذه الصورة، وحاولت قدر استطاعتي أن أبعدا عن ذهني وأمكنني ذلك بقدر محدود ، إلى أن مرت شهور وقرأت في الصحف عن جريمة قتل كانت ضحيتها شابة مصرية، والجاني فيها زوجها، وهو طالب سوداني. استفزت القصة عواطف المصريين وكانت جرائم العنف والقتل ما تزال أمراً غير مألوف بالقدر التي هي عليه الآن. وازداد الناس غمًا عندما صدر حكم محكمة الجنايات بتبرئة القاتل دون حتى حكم موقوف التنفيذ. كل الناس تقريباً يعرفون طريق صلاح سالم ، ولكن أغلبهم لم يكن معاصراً لهذه الشخصية الفريدة ، وكان أول من شاء الله أن ينتهي أجله من بين أعضاء مجلس قيادة الثورة كما كان يسمى، مما كان موضوع نكتة مصرية أخرى نمسك عن روايتها لمأفيها من اجترأ على حرمة الموت الذي هو قدرنا ومصيرنا جميعاً، ويقال أن النكتة - شأنها شأن جميع النكت - وصلت إلى مسامع عبد الناصر وأنه توجه وجهه لسماعها، وإن كان لم يتعظ بها. منسوب لصلاح سالم المذكور أشياء كثيرة رواها اللواء محمد نجيب، منها أنه اغتاض مرة من ضابط شاب في المخابرات، كان أبوه زميلاً للواء نجيب، وأنه إنهال عليه ضرباً حتى تقياً نماً ومات بعد ذلك. ترى كم إسرائيلياً قتلهم صلاح سالم وحمزة البسيوني وأمثالهما من شجعان الضباط ؟

كان صلاح سالم مسؤول ملف السودان كما يقال، وكان قد وضع كل إمكاناته في خدمة الحزب الوطني الاتحادي بزعامة إسماعيل الأزهرى وبقية القصة معروف ويا لها من مهزلة .
موضوعنا هو أنه وقف في أحد اجتماعات الـ "هילה بيلا" التي كانت تعقد إذ ذاك ، وتداع في الراديو ، لم يكن هناك تليفزيون ،

* عدت فرأيت أنه لا بأس بروايتها، النكتة تقول : إذا كانوا حايموتوا واحد كل عشر سنين يبقى القيامة حاتفود وهم قاعين! وكان يصاحبها نكتة أخرى في ذلك الوقت ! إزاي يا أحي وقفوا تمثال رمسيس ! ده وزنه ستين طن ؟ أجاب الآخر : إذا كانوا وقفوا حال البلد مش هاعرفوا يوقفوا تمثال .

وكان معتاداً أن تأخذه الجلالة ويحرق حتى تكاد تطلع روحه .
يبدو أن أحد الحاضرين أثار موضوع القاتل البرئ، وكان تعليق
صلاح سالم أنه إذا كان القاضي قد حكم بدافع من وطنيته فماذا
نفعل؟ هذا هو مفهوم الوطنية عند هذا الكائن، تعالوا افعلوا بنا كل
ما تريدون !

رضعة جديدة من لبن الجاموسة هذه! مضى الحال على هذا
المنوال، من ضياع هيبة القادة العسكريين إلى ضياع هيبة القضاة،
منهم من استقال ومن انتحر ، انتهى هذا بالهزائم المشينة وذاك
بمذبحة القضاة، كل القيم لم يعد لها أدنى وجود، انتهاك النساء أمام
أزواجهن وأبنائهم، الخزائن فى بيوت الكبراء، إنفاق أموال الشعب
فى ممارسة الترف والنعيم ، كلها قصص سمعناها من هؤلاء
الكبراء أنفسهم أو نشرتها صحافتهم، حكى الرئيس السادات قصة
خزينة عبد الناصر للناس فى التلفزيون وهو رئيس الدولة، فماذا
جرى بعد ذلك؟ لا شيء! نشرت القصص عن قتل عالم كبير فى
الطب هو أنور المقتى، ثم ماذا؟ لا شيء... إلى آخر هذه المآسى
التي نعرفها جميعاً.

كان هذا كله ثمن "الترام السوداني" الذي اشتراه صلاح سالم،
مع أنه "ابن بحرى" .

كثيراً ما سألت نفسى، كيف يجرى ما جرى سنة ١٩٦٧ دون
أن توجه كلمة لوم واحدة لعبد الناصر الذى أعلن للناس أنه هو
المسؤول، ولم يكن فى حاجة لذلك فقد شاهدوا المؤتمر الصحفى
الشهير: "إذا أرادت إسرائيل الحرب فأهلا وسهلاً ! " يعنى، تعالوا
اضربونا ! وكيف تدخل الحرب وهذه حالة جيشك؟ لماذا لم يلمه
أحد حتى فى جلسة خاصة؟ لأن فلسطين لم تعد سوى ذريعة
للحكام ليفعلوا ما يشاؤون ببلادهم ، قميص عثمان كما قال نزار
قسبانى. ما قيمة الضفة أو القدس أو غزة؟ لقد وقعنا على غنيمة
يهون هذا كله فى سبيلها . جاموسة سمينة نستمد منها ما نشاء

ونجعلها تـ .. على دماغ الفلاحين المهابيل دول .

الدنيا كلها تضحك علينا وعلى غفلتنا، فالدنيا كلها تعرف أنه لو لم يبق في العالم سوى روسيا فهي لن تسمح لنا بأن نهزم إسرائيل ونعيد الأراضي المقدسة إلى ورثة العثمانيين ، بل لو لم تعد هناك سوى ألمانيا فالألمان سيقفون إلى جانب اليهود إذا كنا نحن الذين نحاربهم، وشيئاً فشيئاً لم تعد الغنيمة هي مجرد لبن الجاموسة، بل دمها ولحمها وعظامها ثم جلدها الذي تحول إلى أحذية لكل دابة تمشى على قدمين.. تأمل هذه الصورة وحدها : منطقة قناة السويس، أربع مدن كبرى وعشرات من البلدان والقرى، يسكنها خمسة ملايين مصري ، يعنى أضعاف شعب فلسطين ، هؤلاء يتشردون ويجرون مذعورين هذا يحمل العيال وهذا يحمل التليفزيون أو الأوعية أو يجرب بطانية ، يوزعون على عشش رأس البر وغيرها من المعسكرات ، بعبارة أخرى ، اقتطعت من مصر سيناء، ومنطقة القناة ، وتشرد خمسة ملايين مصري، تحولوا إلى لاجئين ومسولين، ترى كم مرة تبلغ هذه الكارثة حجم كارثة فلسطين ؟ وكم مرة بلغت كارثة فلسطين قدر حجمها الأصلي نتيجة لذلك؟ وأي عقلية سياسية أو عسكرية أو قيادية تجد أدنى قدر من الحكمة في أن تظل مدفعيتنا "تعزق" في صحراء قاحلة وهم ليسوا في حاجة حتى إلى أي جهد في التصويب، أي قذيفة ستسقط في مدينة أو مزرعة أو منطقة صناعية أو سكنية! حرب الاستنزاف فعلاً ! استنزاف من ؟

البِوَظَانُ :

ليست هذه كلمة بذينة ولا حتى مهينة ، فقد كانت تشيع في الحياة العسكرية أيام التحقت أنا بها سنة ١٩٤٨ كضابط مهندس* مكلف أنا وزملائي من خريجي الهندسة كما سبق ، ولما كنت قد

* قضيت فترة معلما في مدرسة الضباط المهندسين، وكان من تلامذتي في إحدى الفرق أبو عمار. كان أقل تسببا في الضرر في ذلك الوقت.

تركت الخدمة منذ ثلاثين سنة (وكننت فى الجانب الفنى طيلة الوقت، وليس القتالى) فإبنى لا أعرف ما إذا كان هذا "الاصطلاح" ما يزال شائعاً فيها، ولكنه كان كذلك إذ ذاك، وأذكر مرة كنا نصطف فى فناء الكلية الحربية، منات من الطلبة، ووقف واحد من كبار المعلمين (أصبح وزيراً بعد ذلك) وصاح يخاطب الجميع "كل صف ضابط فى الكلية دى بايظ!" كان يقصد أن حملة رتب ضباط الصف بين طلبة الكلية ليسوا بالقدر المطلوب من الانضباط، أو "الضبط والربط" كما كانوا يسمونه. وكان معتاداً جداً أن تجد ضابطاً أو صف ضابط يعنف مرءوساً له بقوله "يا بايظ!" وهى ليست — كما سبق — كلمة بذينة ولا مهينة، إنها — فى قاموس العسكرية — لا تعنى أكثر من الحاجة إلى مزيد من إطاعة الأوامر، وذلك لأن الأوامر فى ظروف المعركة وشبح الموت مخلوق فوق الرعوس، إذا تعرضت لأدنى قنر من التردد — ولا أحد يزعم أن هذا لا يحدث، فقد كان موضوع كتابات عديدة — قد يؤدى إلى أن يهرب كل واحد بجلده .

ومن هنا فإن التقاليد والاحترام الذى يقرب من التقديس ، هى روح حياة الجندية . والقائد العسكرى يتربى على أنه قد اختار لنفسه حياة تشبه الرهينة، فهو لا يسعى إلى النعيم أو الترف وإنما إلى قيمة معنوية عظمى، وهو دائماً على استعداد لاحتمال الشظف والعناء البالغ، برغم أنه فى التقاليد البريطانية مثلاً، قد يكون سليل أسرة من النبلاء أو الأثرياء ، الواقع أنهم درجوا على انتقاء الضباط المحترفين من هذه الطبقة، وكانت الكلية الحربية عندنا لغاية الخمسينيات تستلزم ممن يتقدم للالتحاق بها قائمة بأملاكه للإطمئنان إلى أن هذا الشاب الذى سيصبح قائداً يهب نفسه وحياته لوطنه، لن يزرع تحت نير النفاقة المدمرة ولن يشغل نفسه بأن يحطم بوسائل الكسب والانتفاع ، وأنه سوف يتقبل الموت مطمئناً على عياله ، ثم التقاعد المبكر إذا عاش، وهو واحد من السمات

القاسية فى الحياة العسكرية، وعلى الجانب الأمريكى نرى أن جوزيف كنيدي، الأخ الأكبر لجون الذى كان رئيساً ، خدم فى القوات الجوية فى الحرب العالمية الثانية وقتل فى طلعة جوية أثناء غزو نورماندى، وكان جون نفسه ضابطاً فى البحرية فى الحرب ذاتها وأصيب بجراح خطيرة، ومعروف أن هذين الأخوين ينتميان لواحدة من أكثر العائلات ثراء فى العالم ، وأمام كل منهما — والألوف من أبناء اللوردات والمليونيرات — حياة كلها ترف لا يعلو فوقه ترف ، وقد كان قائد البحرية البريطانية فى معركة نورماندى المذكورة هو اللورد ماونتباتن، وهو قريب الملكة ، قصارى القول إن القائد العسكرى يهب نفسه لحياته، ليس معنى هذا أنه يعيش بلا طموح، فقد أصبح ماونتباتن هذا بعد الحرب آخر نائب للملك فى الهند، (ولم يكف عن الكفاح وقتله ثوار إيرلندا بعد ذلك)، كما أصبح ديوجول رئيساً وأباً روحياً لفرنسا ، وأصبح ايزنهاور رئيساً لأمريكا، فقط عندما يصبح الجيش نوعاً من الأوليجاركية الحاكمة، ومعملاً لتفريخ ذوى الحظوة، وعندما يعمل صغار الضباط كعملاء للسلطة، والكبار يحملون بوظائف الإمارة والوزارة والسفارة عن طريق الصغار، فهذه أعلى درجة من البيوظان الحقيقى . والتطبيق الفعلى واضح النتائج، هذا الوضع الشاذ المشين، قد دمر — فيما دمر — طاقات المحترفين من المديرين والسفراء وكل أصحاب المهن وحطم معنوياتهم وعلمهم المنلة وفقدان الكرامة وقضى على أرواحهم المهنية ، وهو عندما وضع له حد أمكن للجندى المصرى أن يحقق ذاته فى الأيام الأولى لمعركة أكتوبر التى ذاق فيها الإسرائيليون أمر هزيمة واصطف جنودهم فى صفوف الأسر وما عليك إلا أن تقرأ ما كتبه كيسنجر عن استغائتهم التى لا توصف إلا بـ "الحقينى يا ماما" و لحتهم ماما بجسر جوى لم يسبق له مثيل.

العسكرية المصرية

"في هذه الأثناء أيضاً بدأنا في تجميع كميات كبيرة من الأسلحة والذخيرة ، وكان هذا سهلاً للغاية ، ففي عمليات التدريب على ضرب النار كان من السهل أن يقرر ضابط أن رجاله ضربوا مائة ألف طلقة بينما هم استهلكوا عشرين ألفاً فقط، وهكذا تجمع لدينا كميات هائلة أعطينا قسماً منها للإخوان المسلمين ، وقسماً آخر تسلّمه أحمد فؤاد ليوصله إلى حدتو ، وقد أبدى عبد الناصر دهشته عندما أبلغته بذلك ، وقال : أنا أعرف أن الشيوعيين يتوع كلام وسياسة ومش يتوع عمل مسلح ... ولكنني أبلغته أن لهم مجموعة في القناة اسمها الأنصار، ووافق على تسليمهم الذخيرة والسلاح ."

"ثمّة مثل عسكري في صيغة سؤال غريب ، وإجابة أكثر غرابة :

"والدك أقرب إليك أم قومندانك ؟ وأجيب : قومندان طبعاً ...

ليه؟ لأن والدي أعيش معاه ، أما قومندان فأنا أموت معاه" .

"أما أنا فقد عدت إلى الفرسان ، لم أطلب منصباً ، طلبت فقط أن أبقى مع رجالى وزملائى وتقرر أن أعمل كضابط مخابرات سلاح الفرسان ، وكان مفهوماً منذ البداية أنني لن أعمل كضابط مخابرات تقليدى، وإنما سأمارس نشاطاً سياسياً في السلاح من خلال تفرغى لهذا الموقع ، وكان هذا طبيعياً ، فقد كان حسين الشافعى أعلى رتبة منى، ولم يكن بالإمكان أن أتولى في الفرسان موقعاً أعلى منه أو أدنى منه بينما أنا عضو في لجنة القيادة التي أصبحت بشكل أو آخر تمثل سلطة السيادة في مصر."

"والحقيقة أنني وبسبب تكوينى الشخصى كنت راغباً في

الاستمرار مع الضباط وطبعاً كنت أحمل شكواهم وطلباهم ،
وحتى طلبات أقاربهم ، وطلبات بعض أبناء كفر شكر محاولة إيجاد
حلول لها في الوزارات المختلفة، وغضب عبد الناصر وكان يعاتبني
مؤكداً أن وضعي في مجلس القيادة لا يسمح لي بذلك ، ولكنني
كنت أعتقد أنه لا قيمة لوضعي هذا إذا لم أوظفه لحل مشكلات
زملائسي الضباط ، وخاصة الذين خاضوا معي الأيام الأولى
لحربنا".

خالد محيي الدين : "والآن أتكلم" (١٩٩٢)

— للأسف، كان الفريق رياض قد أصدر للتو أمراً إلى الوحدات
التي لا تزال تحارب في الضفة الغربية للأردن ، بالانسحاب إلى
الضفة الشرقية . وأعطينا فوراً أمراً مضاداً إلى قواتنا بالبقاء في
مواقعها.

— كان رياض يعتبر أن السياسة العربية مسؤولة عن كل خطأ
وقع خلال أزمة حزيران ١٩٦٧ ، وفي رأيه أن هذه السياسة
ارتكبت بحق القوات العربية جرائم أكثر مما ارتكب الإسرائيليون
خلال تلك الحرب . وكنت من رأيه تماماً .

— في ٣٠ أيلول ١٩٦٧ تمكنت من الاجتماع بعبد الناصر في
القاهرة ، وقررت معه النقاط الخمس الآتية لتحديد الموقف العربي:
١) نقبل الاعتراف بحق كل واحد في العيش بسلام وأمن في هذه
المنطقة ، بما في ذلك إسرائيل ..."

— كانت معظم أوامر رياض تثير اعتراض الضباط الأردنيين ،
فيبادرون إلى الاتصال باللواء عارف المجالي .. عبد النعم رياض
رجل ذكي، يضح بالحيوية ، ولكنه بدا لي في الظروف العصية
دون المستوى المطلوب ، كان مفروضاً فيه أن يعرف الجيش الذي
دعي إلى تولي قيادته، وأن يعرف الأرض التي سيتاور عليها.

الملك حسين : "حربنا مع إسرائيل"

عندما حدثت الأزمة سنة ١٩٦٧، كنت رئيساً للقطاع الميكانيكى
بسلاح المهندسين، ووجدت فى مكتبته كتابين أمتعتنى قراءتهما،
وهما من تأليف الأمير عمر طوسون، أحدهما "الجيش المصرى
فى عصر محمد على"، والثانى "الجيش المصرى فى حرب القرم"
— كانت هاتان الحقتان مرحلتين مجيدتين فى تاريخ العسكرية
المصرية، والمؤلف يصف بصيرة محمد على فى تصوّره أن
الفلاح المصرى يمكنه أن يتحول إلى مقاتل بعد أن مضت عليه
ألوف السنين لم يمارس فيها تلك المهنة، ويتحدث المؤلف عن
مشكلة القيادة، أدرك محمد على — الذى كانت شريعته هى بناء
دولة حديثة مستقلة من أنقاض أول دولة فى التاريخ — إنه لن
يستطيع أن يخلق قيادات عسكرية من هؤلاء الفلاحين قبل انقضاء
جيل أو اثنين، فجاء بالألبان والجراكسة والأرناؤود ليكونوا هم
"اللبنة الأولى" كما يقال، وجاء بعده الحاكم العظيم إسماعيل، ابن
الجنرال اللامع والقائد المنتصر إبراهيم باشا، والذى كان —
إسماعيل — صاحب الشعار الذى يدل على عمق إدراكه لحقائق
العصر: "مصر قطعة من أوروبا" — فأرسي دعائم العسكرية
المصرية الحديثة، التى أخرجت عرابى والبارودى وأمثالهما من
القادة العسكريين الشجعان.

إلا أن الدنيا كانت قد تطورت، تحولت البنادق إلى رشاشات
وصواريخ، والخيل إلى دبابات وعربات مصفحة، والرسل والحمام
الزاجل إلى شبكات تليفونية (والآن أقمار صناعية وأطراف نكية
... إلخ) ولم تعد الشجاعة والشهامة، والكاريزما، تكفى للصمود
أمام التفوق النوعى التكنولوجى، وقد تعلم الأتراك — "الأشواش" —
تعلموا هذا عندما خاضوا الحرب حلفاء لألمانيا فى مواجهة
الإنجليز والفرنسيين الذين مزقوا أوصال إمبراطوريتهم التى دب
فيها التوس نتيجة للتخلف العلمى والحضارى، وتعلم اليابانيون
الدرس نفسه فى الحرب الثانية، برغم نهضتهم العظيمة، عندما

حط عليهم الجحيم النورى من خلال الغيوم .

لكل عصر حضارة سائدة، تمثلها قوة تقود هذه الحضارة، وتتمثل في مستوى المعرفة وما يصاحب تقدم المعرفة من تطبيقات وتطورات فى جوانب الاقتصاد والصناعة والزراعة والفكر والفلسفة والفنون والممارسات السياسية ونظم الحكم والإدارة، والمواثيق الخلقية والعقائدية. وليس عيباً أن يتعلم الناس من المتقدمين، ولا يستتبع ذلك أن يخضعوا لهم أو أن يسيروا فى ركابهم، الواقع أن الصراع المادى مع المتقدمين هو الذى يأتى بهذا المصير للمتخلفين، ولو أن اليابان عندما خضعت للاحتلال الأمريكى بعد هيروشيما، أصرت على مقاومة هذا الاحتلال وعلى أن ترفع شعاراً مثل الجلاء التام أو الموت الزؤام، لكان مصيرها هو القناء الذى حذر منه هيروهيتو، هذا مع مراعاة أن تاريخ البشرية قد لا يضم نظيراً لما أظهره اليابانيون من الشجاعة والفداء، وحتى الآن ما تزال جزر كوريل اليابانية تحت احتلال الروس.

كان لابد للعسكرة المصرية أن تتطور. ولكن الزعامة السياسية والدينية التى سادت مصر أثناء حملة نابليون فى مطلع القرن التاسع عشر ثم مرة أخرى من بداية الاحتلال الإنجليزى إلى نهاية الحرب العالمية الثانية، مضت تركز على استغلال العاطفة الدينية والوطنية عند أبناء بلادنا الطيبة، وتعلم المصريون ألا يتعلموا من الإنجليز لكونهم أولاً محتلين، وثانياً كفرة ...

كما أن مصر لم تشارك فى الحرب العالمية الثانية برغم هجوم الطليان علينا واحتلال ساحلنا الشمالى الغربى، ثم الألمان الذين كانوا على بعد خطوات من الإسكندرية، ثم قامت السلطات بطرد البعثة العسكرية التى كانت مهمتها تدريب الجيش (نعم، والسيطرة عليه، لن ننكر ذلك، فقط هذا ما دأبت عليه قياداتنا السياسية المتخلفة، نحن نرفض كذا ونرفض كيت، الخصام والقطيعة ...)

وهكذا قوتنا على أنفسنا تلك الفرصة النادرة في بناء عسكرية جديدة حديثة، بخلاف الهند مثلاً التي حاربت مع الحلفاء دفاعاً عن الديمقراطية التي اختارها زعمائها نظاماً لبلادهم المستقلة .

لا أحد يستطيع أن يزعم أن الحرب شيء مرغوب، لعننا الله ألف لعنة، فهي "ما علمتم وذقتمو" كما قال زهير في معلقته، فقط هذه إحدى المعادلات الصعبة في هذه الحياة، وقد قيل إن الشدائد تصنع الرجال، وقديماً قال الفيلسوف الإغريقي هيرقليطس أن الحرب هي أم الرجال، وأنها تجعل الأقوياء سادة والضعفاء عبيداً، وهذه — عنده — كما عند فلاسفة الفاشية — هي العدالة بعينها. لا أحد يقول بذلك، فقط مواجهة الأزمات على مستوى المجتمع هي السبيل الوحيد لبناء القدرة على مواجهة ما يخبئه المستقبل منها، صحيح أن المناورات الجيدة التخطيط والتنريب الذكي واستخدام وسائل المحاكاة simulation يحققان قدراً كبيراً من هذه القدرة، فقط هناك فارق هائل بين إحساس الفرد — والقادة بصفة خاصة — بأن قراراتهم الخاطئة سوف تؤدي إلى رسوب في الامتحان، أو أنها قد تؤدي إلى هلاك الألوف من أبناء بلادهم (سنرى كيف أن بعض القادة لا تتغلبهم هذه المسألة بل أحياناً يريدونها من أجل سلامتهم هم). ولا شك أن مناورات النجم الساطع التي تشارك فيها القوات المصرية قد جاءت بصفحة جديدة تماماً في تاريخها مما وضع أثناء مشاركتها في حرب تحرير الكويت .

يرى المؤرخون العسكريون الأمريكيون أن الحرب، والأزمات بأنواعها مع المكسيك (١٨٤٦ - ١٨٤٨) التي خاضتها الولايات المتحدة ضد ذلك البلد كانت هي التي أفرخت القادة العظماء الذين خاضوا الحرب الأهلية الأمريكية (١٨٦١ - ١٨٦٥)، ومنهم الجنرالات بوليسيز جرانت، ووليم شيرمان، الشماليان، وقائد قوات الجنوب روبرت لي، وكذلك كانت الحرب العظمى (١٩١٤ - ١٩١٨) هي المدرسة التي تخرج فيها عظماء الجنرالات في

الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥) .

لكل شىء قبيح ميزة أو أخرى إذن، والحرب ليست استثناء من هذه القاعدة، بل إن السيطرة الأجنبية ليست هي أيضاً استثناء من ذلك، وقد كانت الحركات الوطنية المصرية منذ أوائل القرن العشرين والتي تزعمها مصطفى كامل ومحمد فريد ثم سعد زغلول ومن خلفوه فى زعامة الوفد والأحزاب الأخرى المنبثقة عنه وغيرها، كانت هذه الحركات تحض الشعب بكل طوائفه على طرد المستعمر تحت شعار الاستقلال التام أو الموت الزؤام ، ولكنها لا تحاول أن تسبر غور هذا المستعمر وتعرف أسرار قوته ثم، وهو الأهم - أن تكتسب هذه القوة ، وقديماً قيل "من عرف لغة قوم أمن شرهم" ، وهكذا فانت علينا فرصة بناء قوة قتالية حديثة عن طريق أداء ولو دور متواضع فى الحرب العالمية بل كان محظوراً على المصريين أن يتطوعوا كأفراد فى قوات الحلفاء، وكما سبق ، كان لدينا ما يدعونا لذلك فقد احتلت رقعة كبيرة من أرضنا بواسطة قوات المحور ، وكانت معارك الدبابات فى الصحراء الغربية فرصة لا مثيل لها لإتقان هذا الفن ولكن شعارنا كان أن هذه حرب "لا ناقة لنا فيها ولا جمل" ، ولن يفوتنا هنا قبل أن نمضى فى حديثنا أن نذكر أن معركة المدرعات التى خاضها الجيش المصرى فى سيناء سنة ١٩٧٣، هذه المعركة - كما هو مذكور فى العديد من المؤلفات التى كتبت عنها - واحدة من أعظم معارك المدرعات فى تاريخ الحروب، وقد بلغت خسائر الإسرائيليين فى الثلاثة أيام الأولى أربعمائة دبابة، وأنا هنا أنقل من مذكرات كسينجر الذى ينقل بدوره عن الملحق العسكرى الإسرائيلى الذى رجاه أن تعمل أمريكا على إنقاذ إسرائيل وأيضاً ألا يترك هذه المعلومات تتسرب، وبقية القصة معروف، فقد تلقت إسرائيل أعظم وأضخم جسر جوى لنقل المدرعات رأته الدنيا فى تاريخها . لا عجب، فقد كان جنرالات مصر قد عادوا قادة

عسكريين وليس مجرد فرق من الانتهازيين المتهافتين على الوظائف والمراكز فى المصالح والوزارات، وسوف نعود لهذه المسألة البالغة الأهمية فى حاضرنا ومستقبلنا.

ثم فى سنتى ١٩٥٣، ١٩٥٤، استعانت مصر بالخبراء الألمان كما هو معروف، وأنا واحد من الذين عاصروهم ، وعاصروا الروس من بعدهم. ووقف الاستعمارى العتيد ونستون تشرشل يندد بهؤلاء الألمان ويتعهد بأن يطلب من كونراد أديناور مستشار حكومة ألمانيا الغربية إذ ذاك أن يعمل على سحبهم من مصر لكى لا تتحول إلى مصدر للخطر ، لم يكن هناك داع لأن يقلق تشرشل على مصالح الأسد الجريح ، فالألمان — مع إقرارنا بكفاءتهم الحربية التى ليس لها ، وربما لن يكون لها، نظير — كانوا وهم عندنا. كما يقول المتنبى: "أنى ... بما أنا باك منه محسود"، فهؤلاء كانوا ضباطاً و"كان" فعل ماض ، ولا قيمة لقائد عسكرى لا يقود شيئاً ولا ينتمى لجيش له كيان وله وجود ولمعاهد عسكرية فيها قلوب تتبض ، كان الخبراء الألمان مجرد "أفندية" يحضرون الطوابير، هذا ينط بالمظلة وذلك يعمل لحساب شركة تنتج القوارب أو الطلمبات ، على أى حال كان عصر الخبراء الألمان مجرد واحدة من المغامرات الكثيرة المتتالية ، كما أن هذه الحقبة من تاريخ الحركة المباركة كانت هى التى كانت أسلحة الجيش تتصارع فيها من أجل غنائم الثورة وقصورها ومجوهراتها وسلطاتها وامتيازاتها ، وكانت قواتنا من المدفعية والمدركات تستخدم تكتيكاتها فى محاصرة "الميس الأخضر" و"الصاغ الأحمر" وغير ذلك من ألوان الطيف ، وأذكر أننى كنت أحداث ضابطاً من القلائل الذين كانوا إذ ذاك يرون فى أنفسهم شيئاً يمتد إلى ما وراء الانتهازية التى كانت هى "العقيدة العسكرية" السائدة إذ ذاك ، وسألته : ماذا لو انتهز الإسرائيليون هذه الفرصة ليهاجمونا وقواتنا منهمكة فى معارك العباسية وكوبرى القبة؟ ولن أنسى ما قاله لى :

ولماذا يتعيون أنفسهم ؟ لن يفعلوا بنا واحداً من مائة مما فعله بأنفسنا! وهل كانوا يحلمون بأن تتحول أفرع القوات المسلحة إلى أحزاب وجماعات سياسية تقتتل من أجل المناصب والسلطات ، ويقف ضباطها خطباء على المنابر يحتجون على أنهم لا نصيب لهم فيما يجرى ، متظاهرين بالغيرة على البلاد... الخ ، قد وضعت مؤلفات حول ذلك تجعلنا لسنا فى حاجة إلى الإشارة إليها ، فقط نحن لا نتحدث الآن عن الموضوع ككل، بل عن أثر هذا الموضوع على المدرسة العسكرية وكفاءة قياداتها . ودار نفس هذا الحديث أيام حرب اليمن وقال لى نفس هذا الضابط الجاد : "إننى أتخيل أحياناً منظرهم وهم يتضاحكون، (يقصد الإسرائيليين) ، ويتعجبون من أين جاءهم هذا النعيم ! ما عليهم إلا أن يتفرجوا علينا ونحن نفرش أرضنا بالبساط الأحمر ليسيروا فوقه ! "

جاءت المغامرة الروسية بعد مغامرة الفاهر والظافر والناصر والخاسر، كان الاتحاد السوفيتى يفاخر الدنيا هو أيضاً بأن لديه "أكبر قوة ضاربة"، فقط هذه كانت رعوساً ثوبية ... وكان العالم الغربى لا ينام الليل منها ، فقط نحن كنا خارج هذه اللعبة ، والذى لم نكن نعرفه أن القوة العسكرية التقليدية لدى الروس كان متخلفة ولا تصلح للقتال الضارى هى أيضاً . وقد اعتمد الروس منذ نابليون على "الجنرال البرد" الذى أهلك الفرنسيين ثم الألمان، كما أن جيشهم موبوء هو أيضاً بالسياسة ، صحيح أن الحزب لا يستمد زعماءه من العساكر، ولكن العكس صحيح ، الجيش يستمد قاداته من الحزب، فى كل وحدة يقبع من يسمونه "قوميسار" ، مندوب الحزب الذى مهمته أن يتأكد من أن الجيش يتدرب على مبادئ الحزب كما أن كل شىء من حكايات الأطفال إلى موسيقى خاتشا دوريان يجب أن يأتى تعبيراً عنها ، نحن أنفسنا كنا قد بدأت أبواقنا نتحدث عن "النقاء الثورى" و"الطهارة الثورية" ، ولعلنا نذكر أن الجنرال السوفيتى الشهير "زوكوف"، بطل معركة برلين، عين

وزيراً للدفاع أيام خروشوف، و كان "صديقاً" لأيزنهاور ولهما صور مشتركة في شوارع برلين بعد استسلام ألمانيا ، ثم ما لبث زوكوف أن أُقيل من منصبه ونسب إليه خروشوف أنه "أهمل تعليم الجيش مبادئ الحزب" . نفس هذه المناظر رأيناها في جيشنا بعد هزيمة ١٩٦٧ التي رأى فيها الروس "وصلنا خلاص !" وجاءوا بالآلاف من "الخبراء" ينتشرون في كل القيادات لغاية مستوى الوحدة، وظهرت كفاءاتهم في مناسبات عديدة بعد ذلك ، من المعارك الجوية مع الإسرائيليين في سماء القاهرة ، حيث تساقطت طائراتهم كالذباب ، إلى معاركهم البرية في أفغانستان ثم دويلات القوقاز، حيث كانوا يبيعون أسلحتهم لأعدائهم من أجل وجبة مشبعة . ليس هذا تعريضاً بالروس كشعب ، فهم قوم جادون مكافحون ، فقط لكل شيء أصوله، مندوب الحزب هذا هو "أهل الثقة" الذين عرفناهم ، مجرد عواظلي "لا منه ولا كفاية شره" كما يقول التعبير الدارج ، وعندما نأتى إلى التشكيلات العسكرية فإنه يصبح كارثة . خذ هذه مثلاً، عندما قامت الحركة المباركة (لن أنسى هذه أيضاً، من إبداعات المصريين، كانوا يتندرون بأن تلميذاً في المدرسة طلب منه أن يصف الثعلب في جملة، فقال إنه حيوان سريع الحركة... المباركة!) عين في منصب رئيس الأركان ضابط كبير كان يشغل منصباً يسمى كبير المعلمين في الكلية الحربية، وهو ما يجعله أستاذاً لأجيال من الضباط، وكان رجلاً عسكرياً مرموقاً ومحترماً ومحبوباً. كيف يؤدي عمله ويتحمل مسؤولياته وفوقه ضابط يصغره بأربع رتب رقى مرة واحدة وجعلوه قائداً عاماً، غضب أول الأمر ثم سكت على مضض. وتحت أيضاً قائد لسلاح الفرسان، يصغره برتبتين حقاً، ولكنه ... عضو مجلس قيادة الثورة؟ تأمل هذا الساندوتش العجيب، أى عسكرية هذه ؟ ومن نواذر هذا الأخير أنه - وهو قائد الفرسان وعضو مجلس قيادة الثورة - استغل نفوذه في أن يلتحق بكلية أركان الحرب ،

وهو ما لا يتأتى إلا باجتياز امتحان عسير يتسابق فيه الضباط ،
وعندما ينجحون فإنهم يدرسون فترة تزيد على سنة ليصبحوا
خبراء حربيين ثم قادة بعد ذلك إذا اختيروا لذلك . ما الذى كان
يريده صاحبنا من وراء ذلك ؟ مجرد تعليق "العلامة الحمراء" كما
تسمى . نفس هذا العضو الأمتل فى مجلس الثورة رأيته يتحدث
فى التلفزيون أثناء سنة ١٩٩٩ ، وكان يتفاخر بشيء ، بعد أن
تجاوز الثمانين ، أتدرى بماذا ؟ بأنه رفض أن يمضى فى جنازة
السادات ! نتجاوز كل هذا بسرعة ونصل إلى حرب أكتوبر . كنت
أستمع إلى الإذاعة فى اليوم الثالث لتلك الحرب على ما أذكر ، كان
المتحدث الصحفى الأمريكى الشهير آرنو دى بورجراف ، كان
يقول أنه قام بتغطية صحافية للعديد من المعارك الحربية من قبل ،
وأن الحرب عادة تتسم بدرجة أو أخرى من الهرج والمرج ،
بطبيعتها ، أما هذه - وكان يتحدث من موقع لقوة مصرية - فقد
أذهلته بما تتسم به من الدقة والنظام فى تحركات القوات المصرية
وأدائها . لا عجب ، فقد كان القادة من نوع أحمد إسماعيل ومحمد
على فهمى (رحمهما الله) وحسنى مبارك (أطال الله عمره) كانوا
من فئة الجنرال المحترف ، وعندما أصبح مبارك نائباً لرئيس
الجمهورية ثم رئيساً ، كان ذلك بفضل أدائه وفدائيته ، وليس نتيجة
لخطبة عصماء أو زعامة انتهازية . إن المنصب جاءه بجر أدبائه
كما قال أبو العتاهية ، لم يكن يسعى إليه أو حتى يفكر فيه . الجنرال
قد تكون له طموحات سياسية ، لا بأس بذلك أبداً ، ولكن البدلة
والسياسة لا يجتمعان ، ليس هناك جديد فى هذا...

وأرجو أن يغفر لى القارئ أن أتوسع فى ضرب الأمثلة وأنتقل
إلى الجانب الآخر من حدودنا ، فهؤلاء هم العسكريون الذين
خبرناهم وحاربناهم على أى حال . سنلاحظ أن جنرالات إسرائيل
الذين أظهروا غاية الإخلاص لبلدهم ، والذين بذلوا غاية الشجاعة
والكفاءة ، كانوا هم الذين يريدون إقرار السلام : وايزمان ،

رابين، باراك... أما الثيران من أمثال شارون (جنرال بلطحي) ،
 والبغال من أمثال ناتانياهو (وهو ليس عسكرياً كما نعرف) فإنهم
 يظنون أن الفتونة والمهيسة تغنى عن أعمال الحكمة والفكر ، إنهم
 لخرورهم وحمافتهم كما كان الحال عند فتوات مصر - يظنون
 أنهم وحدهم في هذا العالم قفتوتهم حقائقه .
 كان اغتيال رابين في إسرائيل هو نظير اغتيال السادات في
 مصر، وكان في كلتا الحالتين عملاً فاشلاً ، لأن الفرد هالك على
 أية حال، أما الأفكار فهي قادرة على البقاء في عقول الآخرين.

مستقبل القوات المسلحة :

تتميز الحقبة التي نعيشها الآن بما يبدو أنه تطور هائل في دور
 القوات المسلحة أو فارق كبير بين دورها طوال ثلاثة أرباع القرن
 العشرين، والرابع الأخير من هذا القرن أو ربما نقول "ذلك القرن"،
 باعتبار أنه قد انقضى .

شهدنا - أو شهد العجائز منا، مثلى أنا وأبناء جيلي - حربين
 عظيمتين في القرن العشرين. كانت الأولى صراعاً بين أباطرة
 أوروبا، يأتي من أطماعهم في بقية أنحاء العالم، كانت أوروبا قد
 قطعت شوطاً في التقدم يجعلها لا ترى في آسيا وإفريقيا سوى
 موارد مادية وبشرية يحق لها أن تستمد منها ما تشاء من أجل
 إنتاجها ورفاهيتها ، ومن هنا جاءت حرب البوير مثلاً قبل ذلك، ثم
 وصل الصراع على هذه الغنيمة الكبرى إلى أقصاه في الحرب
 العالمية الأولى. ويرى الكثيرون أن الحرب الثانية لم تكن سوى
 نتيجة للأولى ولما أدت إليه من إذلال لواحدة من أعظم وأقوى
 الأمم في العالم وهي ألمانيا ، التي أصر شعبها على الانتقام . إن
 كان هذا صحيحاً فبدرجة أو أخرى، لأنه لا يفوتنا أن نلاحظ أن
 ألمانيا كانت قد تحولت من نظام إمبراطوري - بعد سقوط